

من الخزانة الشرقية

بفلم هيب زيات

الصيرفة في الاسلام

وافلاسهم من إلاح الناس في اخذ اموالهم

كانت النقود تختلف سكة ووزناً. وتقرض او تُرْتَف احياناً، فتخص قيسة او يبطل التعامل بها ولذلك كان لا بد من خازن عارف بتمييز الجيد من الردي. منها ، وهو فعل الجهد . واللغة فارسية اختلف مدلولها باختلاف الازمنة والامكنة. وبعد ان كان في عهد الخلافة العباسية بمعنى الناقد والصيرفي ، الذي تُحال اليه اموال الجهات زلاءمال ، وتُستلف منه عند الحاجة جواري الكتاب وارزاق الرجال^(١). اصبح في دولة المماليك بصر « الكتاب برسم الاستخراج والتبض وكتب الوصولات وعمل المخازيم والحتمات وتواليها »^(٢).

وكان يُقال للدرهم الباطل الردي. « البهرج »، وللدينار الناقص « المثلوم ». ولما يُتقطع منه « القراضة ». قال ابن خلكان: « المثلوم عبارة عن دينار تقطع منه قطعة صغيرة. وقد جرت عاداتهم في العراق وتلك البلاد ان يفعلوا مثل ذلك لانهم يتعاملون بالقطع الصغار ويسونها القراضة . ويتعاملون ايضاً بالمثلوم وهو كثير الوجود في ايديهم »^(٣).

ولهذه الاسباب كانت الدنانير توزن وزناً ، ولا تُقبض الا بعد ان تُصَحَّح. حتى اصح لفظ « الوزن » و « التصحيح » مرادفاً لمعنى الدفع. واقتضت الحال في الدواوين السلطانية والحاضرة وجود خازن في كل منها عارف باحوال الذهب والفضة وشروط النقود، بصير بكل خلل او حيف يطرأ عليها. وهو العلم الذي برز فيه اليهود في كل عصر ومصر . ومن الغريب انه لم يكن لهم في ايام

(١) تحفة الاسراء في تاريخ الرزوا. لسابان ، ص ٨٠-٨١

(٢) قوانين الدواوين لابن ماني. بريتيش موزيوم. 9 3120 Or.

(٣) الاول من وفيات الاعيان ، ص ٥٦١

الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩ م) حظّ في الجبذة . وان الصيارفة كانوا في الأعمّ الأغلب من النصارى حسبما صرح به في إحدى رسائله ، حيث قال : « ما عظم النصارى في قارم العوام وحيثهم الى الطغام ان منهم كتّاب السلاطين وفرّاشي الملوك واطبا . الاشراف والبطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودي الا صبأغاً او دباغاً او حجّاماً او قصاباً او شعاباً^(١) . وهو ما لا يكاد يُصدّق لما هو مشهور من ضراء اليهود باحتجاب حُرّف النقود . ولعلّ الجاحظ ، بعد ان كتب رسالته المذكورة ، لم يلبث ان شهد ازدحامهم على الصيرفة وبلاءهم فيها حتى اعترف لهم السلطان بالتخصّص بها . ولذلك لما تولّى الخلافة المقدّر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ - ٩٣٢ م) كان اول ما امر به في السنة الثانية « ان لا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطبّ والجبذة فقط »^(٢) . وهو ما يقتضي حتّى وجودهم قبل ايامه في مناصب الحزّانة والصيرفة . زاحموا عليها النصارى بالمناكب حتّى اوشكوا ان يزجّوهم عنها . ولذلك اقرّ لهم المقدّر بحقّ الخدمة فيها . وربما استغلّوا بها غالباً في بعض الاقاليم كالشام ، فان الرحالة المشهور البشاري المقدسي المتوفى في الربع الاخير من القرن الرابع للهجرة ، لما طاف فيه ، قال : « واكثر الجهادة والصيادين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود . واكثر الاطبا . والكبة نصارى »^(٣) . وهذه القصة بين النصارى واليهود هي التي أشير اليها في البيتين المشهورين :

لُنّ النصارى واليهود ، فاضم بانوا بمكرم بنا الآمالا
خرجوا اطبا ، وحُباباً ، لكي يتقنوا الارواح والاموالا

يريد بالحساب الحُرّان والنقّاد ، لا الكتاب . وهو ما صرح به التقاضي ابو منصور عبد الحميد بن محمد بن الخطيب المتوفى سنة ٥٩٨ (١٢٠٢ م) بقوله :

العلم برفع من قد كان متضماً من قبله ، فتراه زائد الخال
ان النصارى عُخوا بالطبّ ، فامتثلت طوعاً او اصرام من غير اِمال
واهتمّ قوم بلمّ النقد ، فارتفعوا ، وهم جود ، وعزّوا بد اذلال

(١) رسالة الردّ على النصارى ، ص ١٧

(٢) سِراة الزمان لبسط ابن الجوزي . بريتيش موزيوم ^b 41 ^a 4619 Or.

(٣) احسن التتاسيم ، ص ١٨٢

فهؤلاء ، وان كانوا ذوي ضمة ، فالعلم حكمهم في النفس والمال (١)
فخصص اليهود بعلم النقد اي الجهيذة . ويظهر انهم لم ينفردوا به تماماً ،
وان المجوس كانوا يشاركونهم فيه احياناً كما يؤخذ مما رواه ماري بن سليمان ، قال :
« ان جماعة من المسلمين كتبوا سعاية في عبادة الله سليمان (بن ومب وهو في
الوزارة) الى المعتضد واغروا به وحكروا عليه الى النصارى . واتصل الخبر بعبادة الله
فجزع ودخل على المعتضد . فدفع اليه الرقعة . فتغير واعتذر ، وقال : ما وليت
نصرانياً سوى عمر بن يوسف للانباء . والجهاذة يهود ومجوس . واعتمدت عليهم
لا ميلاً اليهم لكن لتقتي بهم . فقال المعتضد : اذا وجدت نصرانياً يصلح لك
فاستخدمه . فهو آمن من اليهود لان اليهود يتوقعون عود الملك اليهم . وآمن من
المسلم لانه موافقته لك بالدين يروم الاحتيال على مثلك وموضعك . وآمن من
المجوس لان الملكة كانت فيهم . ووصاه بالاحسان اليهم وخرج مسروراً . »^(٢)
ولا يخفى قدر هذه الشهادة في حق النصارى من مثل خليفة الوقت
المعتضد بالله .

ومن جهابذة الحضرة في زمان المقتدر بالله ابراهيم بن يوحنا^(٣) ، وذكريا بن
يوحنا^(٤) ، وابراهيم بن ايوب^(٥) من النصارى . وهرون بن عمران^(٦) ، ويوسف بن
فنجاس^(٧) من اليهود . ومن لم يُصرح بنسبتهم اسرائيل بن صالح ، وسهل بن
نظير^(٨) . وقد نقل الصابي طرفاً من سرقاتهم اموال الدولة بواطأة ووزراء الوقت
كابني القرات وحامد بن العباس . واشتهر منهم ايضاً في خلافة القائم بامرته

(١) الثاني من ذيل الديلمي على تاريخ بغداد للخطيب . خزانه باريس ٥٩٢٢ ، ص ١٦٨ .

(٢) كتاب المجدل (اخبار قطاركة كرسي المشرق) رومة ١٨٩٩ ، ص ٨٤ .

(٣) الصابي : تاريخ الوزراء ، ص ٢٢٦ ؛ ونيجارب الامم لابن مكويه (طبعة مصر)

ص ١٩ و ١٥ .

(٤) الصابي : تاريخ الوزراء ، ص ١٥٨ .

(٥) ملة تاريخ الطبري لعريب ، ص ١٢٥ .

(٦) الصابي ، ص ٢٢٣-٢١٠ ، ١٥٨ ، ٢٠٦ .

(٧) الصابي ، ص ٢١-١٥٨ ، ١٠٨ ؛ وفي الاصل المطبوع « فيجاس » وهو تصحيف .

(٨) نيجارب الامم لابن مكويه ، ص ٢٤٩ .

علي بن هرون الجهبذ قتله الامير مجكم سنة ٣٢١ (٩٤١ م) بعد ان اخذ منه احمد بن علي الكوفي مائة الف وعشرة آلاف دينار^(١).

ومن صياقة الشام قبل ايام المقتدر بالله يعقوب بن الفرج الجهبذ النصراني مجلب ، وهو الذي هجاء البحري اتبع هجاء واقذعه بابياته :

فان كنت ادمت ، او خنت ، او لمجت بظلي في من لمج . . . (٢)

وهناك جهنم ورد ذكره في تلخيص الصافي باسم ابراهيم بن احمد بن ادريس .
 صريح في احدى المصادر السلطانية على ستة آلاف دينار^(٣) . ويؤيد ذلك من اسمه على انه كان من المسلمين . وقد شارك المسلمون اليهود والمجوس في تعاطي الجهبذة في العهد الاول من الخلافة العباسية . وبما يؤيد ذلك ما رواه المبرد في الكامل ، وهو ما وظأنا له هذه المقالة ، قال :

« روى الاسدي انه افتقر رجل من الصياقة بإلحاح الناس في اخذ اموالهم التي كانت لديه وتمذر امواله التي كانت له عند الناس . فآل جماعة من الجيران ان يسيروا معه الى رجل من قريش من اولاد أجراهم ليد من خلتهم . فاروا فجلسوا في الصحن . فخرج اليهم يخطر بقضيب في يديه حتى نثى وسادة فجلس عليها . فذكروا حاجتهم وختل صاحبهم مع قديم نعتهم وقرب جوارده . فخطر بالقضيب ثم قال متثلاً : — والشعر لنصيب ، وقيل لكثير . والاول اثبت —

اذا المال لم يوجب عليك عطاءه ضيمة تقوى او صديق توافقه
 بخلت ، وبسب البخل حزم وقوة فام ينتاذك المسال الا حفاتفه

ثم اقبل على القوم فقال : انا والله ما نحمد عن الحق ولا نتدقق في الباطل .
 وان لنا حقوقاً تشغل فخذول اموالنا . وما كل من افلس من الصياقة احتلنا لجيره .
 قوموا يرحمكم الله . قال فابتدر القوم الامواب .^(٤) »

وهذا مثال قديم لما يجري اليوم في اكبر المحارف ، اذا ازدهم الناس على اخذ ودائعهم منها ولا تحفى قيسة نثائر هذا الشاهد في تلخيص الصيرفة في

(١) الادراق لتصولي ، ص ١٤٧ - ١٤٨

(٢) ديوانه . خزانه باريس ٣٠٨٦ ، ص ٧٦

(٣) تحفة الاسراء في تاريخ الوزراء ، ص ٢٢٤

(٤) الكامل لتسبرد (طبعة التقدم بصر) ١ : ١٦٩ - ١٧٠

الاسلام. ولا يبعد ان يكون الصيرفي الذي ذكره الاسدي من بقية صياغة مكة قبل الهجرة.

وقل جداً ان يشير الكتبة والمؤرخون الى الصياغة المسلمين . ولعل ذلك لكراهتهم الاقرار بتماطي الربا في الخلافة العباسية . ويظهر انهم كانوا اوفر عدداً في مصر في الخلافة الفاطمية ، والامارتين الطولونية والاشيدية ، حتى كانوا لا يباليون احياناً باحكام الشرع فيضطر المحتسب الى تأديبهم . وفي سنة ٣٦١ (١٧١/٢ م) ، في ربيع الاول ، عزّر المحتسب جماعة منهم . قال المقرئ فشبغوا وصاحوا : معاوية خال علي بن ابي طالب " . وهذا النداء . كان ينادي به اهل السنة في وجوه اهل الشيعة في اوقات الفتنة والاضطراب .

ومن الدلائل على وجود بعض الجهادية المسلمين في دولة المماليك ما نقل من الاوامر السلطانية التي كانت تحظر على اهل الذمة ان يكونوا صياغة . فلا بد في مثل هذه الحال ان يكون قد حصل الاستغناء عنهم بقيام المسلمين مقامهم . قال ابن قاضي شهبة الاسدي في جملة اخبار دمشق بتاريخ سنة ٧٥٧ (١٣٥٦ م) :

« في جمادى الاولى نودي في البلد لا يُستخدم احد من اهل الذمة في شي . من الجهات . ولا يُمكنوا ان يكونوا صياغة ايضا »^(١) .

وقد عني الفقهاء . والرواة والمؤرخون في القرن الخامس للهجرة خصوصاً بوضع الاحاديث والاخبار المنسوبة للخلفاء . في كراهة تنصيب اهل الذمة في الدواوين وتسليم بيوت المال اليهم . وجلأوا احياناً الى اسخف الوسائل ، وتجاوزوا كل حد في التلغيف والتضليل لاثارة الاحقاد عليهم . ومن ادل هذه الامثال ما جاء في تاريخ المماليك نقله لمراتبه وفكاهته . قال بلفظه :

« حكى عن الكآني انه كان يرى . الخليفة المستنجد يأخذ عليه الفراءة . وكان الخليفة يفسد من وراء حجاب والكآني يأخذ عليه . وكان قد بلغ الكآني ان الخليفة قد سلم امر بيت المال لانسان ذمهم . فقرأ الخليفة هذه الآية : « يا ابا الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء . بعضهم اولياء بعض . ومن يتولهم فانه منهم » . فدن الكآني يده على

(١) انطاخ المنفاه باخبار الخلفاء ، ص ٨٧

(٢) ذيل ابن قاضي شهبة . خزانة باريس ١٦٠٠ ، ص ١٥٢

الارض . وكانت عادته ان لا يدق الا اذا غلط . فاعاد الخليفة الآبة صحيحة . فاعاد الدق ثلاث مرار . ففهم الخليفة سنا . وقام على حاله احضر رأس الذمي في طبق واخرجها (١) للكآتي من تحت السر . فمئذ ذلك قرأ الآبة . فا عاد الكآتي يدق . (١٥)

ويظهر ان هذه الحكاية الصيانية قصها وزير المغرب بكل جد على الاميرين سيف الدين سلاار ، وركن الدين بيبرس الجاشنكير ، حين مر بالقاهرة سنة ٧٠٠ للهجرة (١٣٠١ م) قاصداً الحج . وانكر ما رآه من ملابس النصارى بمصر وركبهم الخيل والبغال . وتتقدم اجل المناصب الديوانية . فأثرت حكايته في الامير بيبرس خصوصاً . وكانت سبب إذلال النصارى ونكبتهم في السنة المذكورة .

ولا حاجة الى التنبيه على ما في هذه الخرافة المضحكة من التخليط والجهل الفظيع . وقد غيبي على الوزير والامير والمؤرخ ان بين الكآتي والمستنجد بالله قريباً من اربعة قرون . لان مؤتب الامين توفي سنة ١٨٩ للهجرة (٨٠٥ م) ومات المستنجد بالله سنة ٥٦٦ (١١٧٠ م) فكيف استطاع ان يستنجد بالكآتي لتعلم القرآن كالصبيان .

(١) يظهر ان تأنيث الرأس كان من اغلاط العامة والكتاب قديماً . قال عبد اللطيف البنداوي : « ما تؤنث العامة وهو مذكر البطن والرأس » (ذيل النصح ص ١١٤) ومن شواهد افلام الكتاب قول ياقوت الحسوي تتلاً عن ابي عثمان المازني : « كنا عند ابي زيد (الانصاري) فجاء الاصمعي واكب على رأسه يفلها » (معجم الادبا . ٢٣٦٤ : ٤) وللدفوي في مقدمة كتابه الطالع السيد في كلامه على صيد قوم وارضها « اقتت بها الى ان طار من رأسي غراباه (ص ٤-٥) وقد أنثها المترزي مراراً في كتابيه المخطط واللوك . قال في قتل الملك احمد ابن الملك الناصر في الكرك : « فتوجه اليه الملك الصالح وقطع رأسه واحضرها الى مصر » (المخطط ١٢٤ : ٤) وفي اخبار سنة ٧٣٧ : « بما انفارس وفي ظنه ان رأس النشوق قطعت عن يده (اللوك خزانه الفاتيكان ص ١٢٠) وفي تاريخ ابن ميسر : « لا تحمات رأس العادل الى القصر اشرف الظاهر من باب الذهب ورفعت الرأس ليراهم الناس » (ص ١٢) ومن اكثر من تأنيثها الفلنشندي في صبح الاعشى (٢٥١ : ٣) وابن تغري بردي (النجوم ٢ : ٦٨)

Beitraege zur Geschichte der Mamiikensultane. Herausgegeben von K. (٢)
v. Zetterstéen. Leiden, 1919 (٨٧ - ٨٦ ص)

دراهم الكاغد

هو الاسم الذي دعا به ابن بطرطة اوراق النقود التي وجدهم يتعاملون بها في الصين، لكحل الصكوك المعروفة اليوم بالبكنوت او الليرة الورق. ولم نجد من أشار الى شيء من هذه الاوراق في عهد الخلفائين العباسية والفاطمية ، او في دولة المماليك. ولعلها لم تنشأ الا في دولة المغول، بعد سقوط بغداد. واول من ذكر ظهورها في ايامهم ، على ما وقفنا عليه ، عبد الرزاق الفوطي في اخباره عن القرن السابع للهجرة. ودعاها الجاؤ ، ورسها كذا يوار مفتوحة بآخه. وحكى ان صدر الدين احمد بن عبد الرزاق الخالدي ، صاحب ديوان المالك في تبريز ، وضع هذا الجاؤ سنة ٦٩٣ (١٢٩٤ م) عوض السكة من الدنانير والدرهم. وامر ان يتاملوا به ، وعليه قيمة السلطان . قال : « وكان من عشرة دنانير الى درن ذلك حتى ينتهي الى درهم . ونصف . وربع . فتعامل به اهل تبريز اضطراراً لا اختياراً بالقرس والقهر . فاضطربت الحوامم اضطراباً اضر بهم وبغيرهم حتى تمددت الاقوات وسائر الاشياء . وانقطعت المراد من كل نوع . فكان الرجل يضع الدرهم في يده تحت الجاؤ ويعطي الجباز والقصاب وغيرهما ويأخذ حاجته خرقاً من اعوان السلطان . ثم يحمل منه عدة احمال الى بغداد صعبة الامير لكزي ابن ارغون اقا . فلما بلغ ذلك اهلنا استمدوا بالاقوات وغيرها حيث عرفوا ما جرى في تبريز . فلما أتى ذلك الى السلطان كيناقو امر بابطاله فأبطل قبل وصول لكزي الى بغداد وكفى الله العالم شره . »^(١)

وفي سنة ٦٩٧ (١٢٩٧ م) امر السلطان غازان بقتل صدر الدين المذكور ، لما ظنهم من سوء سيرته ، واخياره الجاؤ . وقره الناس على التعامل به . فاضر بهم وبطلت معاشهم وتعطلت امورهم .^(٢)

(١) الحوادث الجامعة في المائة السابعة ، نكبات الدين عبد الرزاق الفوطي ، الخزانة النيسورية ص ٢١٢ ، رقم ١٣٨٣
(٢) الكتاب المذكور ، ص ٢٣٦

وفي ضد ذلك كان اهل الصين يفضلون التعامل بقطع الكاغد على الدراهم والدنانير. وكان من عاداتهم ، في زمان ابن بطرطة ، ان يسبك التاجر ما يكون لديه من الفضة والذهب ويجعلها قطعاً زنة قنطار وما فوقه وما دونه. ويثبتها على باب داره فيما قيل. ومن اجتمعت له خمس قطع جعل في اصبعه خاتماً. ومن كانت له عشر جعل خاتمين. ومن كان له خمس عشرة سنتوه السّبي وهو يعني الكارمي بمصر^(١). ويظهر انهم كانوا يعتبرون مجموع هذه البائك رهناً لتقد الكاغد ، كما هي الحال اليوم. ولذلك قام الكاغد عندهم مقام الذهب والفضة. قال ابن بطرطة :

« فكانوا لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد. كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان. وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالثت وهو يعني الدينار. واذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار الكفة عندنا فاخذ عوضها جديداً ووضع تلك. ولا يعطي على ذلك اجرة ولا سراها. لان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان. وقد وكل بتلك الدار امير من كبار الامراء. واذا مضى انسان الى اسوق بدرهم فضة ودينار يريد شراء شي. لم يؤخذ منه ولا يلتفت اليه حتى بصرفه بالبالثت ويشترى به ما اراد.^(٢)»

(١) رحلة ابن بطرطة (طبعة النيل بصر) ١٥٤: ٢٤

(٢) رحلة ابن بطرطة (طبعة النيل بصر) ١٥٥: ٢٤